الهوامل والشوامل

تأليف
أبو حيان التوحيدي وابن مسكويه

هنـــداوي

الهوامل والشوامل

أبو حيان التوحيدي وابن مسكويه

الناشر مؤسسة هنداوي سي آي سي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

٣ هاي ستريت، وندسور، SL4 1LD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي سي آي سي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ليلى يسري.

الترقيم الدولي: ٨ ١٦٤٧ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

جميع الحقوق الخاصة بالإخراج الفني للكتاب وبصورة وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي سي آي سي. جميع الحقوق الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاضعة للملكية العامة.

Artistic Direction, Cover Artwork and Design Copyright © 2019 Hindawi Foundation C.I.C.
All other rights related to this work are in the public domain.

المحتويات

المسألة الأولى: وهي لغوية	١٤
المسألة الثانية: مسألة خلقية	٢١
المسألة الثالثة: مسألة مركبة من أسرار طبيعية وحروف لغوية	٢٥
المسألة الرابعة: مسألة اختيارية	٢٩
المسألة الخامسة: مسألة اختيارية	٣٥
المسألة السادسة: مسألة طبيعية	٣٨
المسألة السابعة: مسألة خُلقية	٤١
المسألة الثامنة	٤٣
المسألة التاسعة: مسألة طبيعية	٤٦
المسألة العاشرة: مسألة طبيعية	٤٧
المسألة الحادية عشرة: مسألة اختيارية	٤٨
المسألة الثانية عشرة: مسألة طبيعية	٥٠
المسألة الثالثة عشرة: مسألة اختيارية	٥٢
المسألة الرابعة عشرة: مسألة خُلقية	٥٤
المسألة الخامسة عشرة: مسألة طبيعية واختيارية	٥٦
المسألة السادسة عشرة: مسألة طبيعية	٥٨
المسألة السابعة عشرة: مسألة اختيارية	٦٣
المسألة الثامنة عشرة: مسألة طبيعية	٦٤
المسألة التاسعة عشرة: مسألة طبيعية واختيارية	٦٦
المسألة العشرون: مسألة اختيارية	٦٨

المسألة الحادية والعشرون: مسألة طبيعية خُلقية ٧٠
المسألة الثانية والعشرون: مسألة طبيعية خلقية ٧١
المسألة الثالثة والعشرون: مسألة خلقية ٧٢
المسألة الرابعة والعشرون: مسألة طبيعية وخلقية ٧٥
المسألة الخامسة والعشرون: مسألة طبيعية ٧٨
المسألة السادسة والعشرون: مسألة طبيعية ٨٠
المسألة السابعة والعشرون: مسألة خلقية ٨١
المسألة الثامنة والعشرون: مسألة طبيعية ٨٣
المسألة التاسعة والعشرون: مسألة في حد الظلم ٨٦
المسألة الثلاثون: مسألة زَجْرِيَّة ولغوية ٩٠
المسألة الحادية والثلاثون: مسألة خلقية ٩٢
المسألة الثانية والثلاثون: مسألة طبيعية ٩٤
المسألة الثالثة والثلاثون: مسألة نفسانية ٩٥
المسألة الرابعة والثلاثون: مسألة تشتمل على نيف وعشرين مسألةً طبيعيةً ولغوية وفيها الكلام في البخت والاتفاق ٩٧
المسألة الخامسة والثلاثون ١٠٦
المسألة السادسة والثلاثون ١٠٨
المسألة السابعة والثلاثون: مسألة طبية ١١٠
المسألة الثامنة والثلاثون ١١٢
المسألة التاسعة والثلاثون ١١٤
المسألة الأربعون: مسألة خلقية ١١٥
المسألة الحادية والأربعون: مسألة إرادية ١١٦
المسألة الثانية والأربعون: مسألة إرادية وخلقية ولغوية ١١٧
المسألة الثالثة والأربعون: مسألة إرادية وخلقية ١١٩
المسألة الرابعة والأربعون: مسألة في مبادئ العادات ١٢٠
المسألة الخامسة والأربعون: مسألة طبيعية ١٢١
المسألة السادسة والأربعون: مسألة إرادية ١٢٣
المسألة السابعة والأربعون: مسألة في الرؤيا ١٢٤

المسألة الثامنة والأربعون	١٢٦
المسألة التاسعة والأربعون: مسألة إرادية وخلقية	١٢٨
المسألة الخمسون	١٣٢
المسألة الحادية والخمسون	١٣٦
المسألة الثانية والخمسون	١٣٧
المسألة الثالثة والخمسون	١٤٠
المسألة الرابعة والخمسون	١٤٢
المسألة الخامسة والخمسون	١٤٤
المسألة السادسة والخمسون	١٤٧
المسألة السابعة والخمسون	١٤٩
المسألة الثامنة والخمسون	١٥١
المسألة التاسعة والخمسون	١٥٣
المسألة الستون	١٥٦
المسألة الحادية والستون	١٥٩
المسألة الثانية والستون	١٦١
المسألة الثالثة والستون	١٦٣
المسألة الرابعة والستون	١٦٨
المسألة الخامسة والستون	١٧٠
المسألة السادسة والستون	١٧٢
المسألة السابعة والستون	١٧٤
المسألة الثامنة والستون	١٧٦
المسألة التاسعة والستون	١٧٨
المسألة السبعون	١٧٩
المسألة الحادية والسبعون	١٨١
المسألة الثانية والسبعون	١٨٣
المسألة الثالثة والسبعون	١٨٤
المسألة الرابعة والسبعون	١٨٥
المسألة الخامسة والسبعون	١٨٧
المسألة السادسة والسبعون	١٨٩

المسألة السابعة والسبعون	١٩٠
المسألة الثامنة والسبعون	١٩٢
المسألة التاسعة والسبعون	١٩٤
المسألة الثمانون	١٩٦
المسألة الحادية والثمانون	١٩٧
المسألة الثانية والثمانون	١٩٩
المسألة الثالثة والثمانون	٢٠١
المسألة الرابعة والثمانون	٢٠٤
المسألة الخامسة والثمانون	٢٠٥
المسألة السادسة والثمانون	٢٠٧
المسألة السابعة والثمانون	٢٠٩
المسألة الثامنة والثمانون	٢١١
المسألة التاسعة والثمانون	٢١٦
المسألة التسعون	٢١٧
المسألة الحادية والتسعون	٢٢٢
المسألة الثانية والتسعون	٢٢٤
المسألة الثالثة والتسعون	٢٢٦
المسألة الرابعة والتسعون	٢٢٨
المسألة الخامسة والتسعون	٢٣٠
المسألة السادسة والتسعون	٢٣٢
المسألة السابعة والتسعون	٢٣٤
المسألة الثامنة والتسعون	٢٣٦
المسألة التاسعة والتسعون	٢٣٨
المسألة المائة	٢٣٩
المسألة الحادية والمائة	٢٤١
المسألة الثانية والمائة	٢٤٣
المسألة الثالثة والمائة	٢٤٥
المسألة الرابعة والمائة	٢٤٨
المسألة الخامسة والمائة	٢٤٩

المسألة السادسة والمائة	٢٥١
المسألة السابعة والمائة	٢٥٢
المسألة الثامنة والمائة	٢٥٤
المسألة التاسعة والمائة	٢٥٦
المسألة العاشرة والمائة	٢٥٧
المسألة الحادية عشرة والمائة	٢٥٩
المسألة الثانية عشرة والمائة	٢٦٠
المسألة الثالثة عشرة والمائة	٢٦٢
المسألة الرابعة عشرة والمائة	٢٦٣
المسألة الخامسة عشرة والمائة	٢٦٤
المسألة السادسة عشرة والمائة	٢٦٦
المسألة السابعة عشرة والمائة	٢٦٨
المسألة الثامنة عشرة والمائة	٢٦٩
المسألة التاسعة عشرة والمائة	٢٧٠
المسألة العشرون والمائة	٢٧١
المسألة الحادية والعشرون والمائة	٢٧٣
المسألة الثانية والعشرون والمائة	٢٧٥
المسألة الثالثة والعشرون والمائة	٢٧٨
المسألة الرابعة والعشرون والمائة	٢٧٩
المسألة الخامسة والعشرون والمائة	٢٨١
المسألة السادسة والعشرون والمائة	٢٨٢
المسألة السابعة والعشرون والمائة	٢٨٣
المسألة الثامنة والعشرون والمائة	٢٨٥
المسألة التاسعة والعشرون والمائة	٢٨٧
المسألة الثلاثون والمائة	٢٨٨
المسألة الحادية والثلاثون والمائة	٢٩٠
المسألة الثانية والثلاثون والمائة	٢٩٢
المسألة الثالثة والثلاثون والمائة	٢٩٣
المسألة الرابعة والثلاثون والمائة	٢٩٥

المسألة الخامسة والثلاثون والمائة	٢٩٧
المسألة السادسة والثلاثون والمائة	٢٩٨
المسألة السابعة والثلاثون والمائة	٣٠٠
المسألة الثامنة والثلاثون والمائة	٣٠٣
المسألة التاسعة والثلاثون والمائة	٣٠٤
المسألة الأربعون والمائة	٣٠٦
المسألة الحادية والأربعون والمائة	٣٠٧
المسألة الثانية والأربعون والمائة	٣٠٩
المسألة الثالثة والأربعون والمائة	٣١١
المسألة الرابعة والأربعون والمائة	٣١٣
المسألة الخامسة والأربعون والمائة	٣١٥
المسألة السادسة والأربعون والمائة	٣١٧
المسألة السابعة والأربعون والمائة	٣١٨
المسألة الثامنة والأربعون والمائة	٣٢٢
المسألة التاسعة والأربعون والمائة	٣٢٣
المسألة الخمسون والمائة	٣٢٥
المسألة الحادية والخمسون والمائة	٣٢٧
المسألة الثانية والخمسون والمائة	٣٣٠
المسألة الثالثة والخمسون والمائة	٣٣١
المسألة الرابعة والخمسون والمائة	٣٣٤
المسألة الخامسة والخمسون والمائة	٣٣٦
المسألة السادسة والخمسون والمائة	٣٣٨
المسألة السابعة والخمسون والمائة	٣٤٠
المسألة الثامنة والخمسون والمائة	٣٤١
المسألة التاسعة والخمسون والمائة	٣٤٣
المسألة الستون والمائة	٣٤٥
المسألة الحادية والستون والمائة	٣٤٧
المسألة الثانية والستون والمائة	٣٤٨
المسألة الثالثة والستون والمائة	٣٥١

المسألة الرابعة والستون والمائة	٣٥٣
المسألة الخامسة والستون والمائة	٣٥٥
المسألة السادسة والستون والمائة	٣٥٧
المسألة السابعة والستون والمائة	٣٥٩
المسألة الثامنة والستون والمائة	٣٦١
المسألة التاسعة والستون والمائة	٣٦٢
المسألة السبعون والمائة	٣٦٣
المسألة الحادية والسبعون والمائة	٣٦٥
المسألة الثانية والسبعون والمائة	٣٦٧
المسألة الثالثة والسبعون والمائة	٣٦٩
المسألة الرابعة والسبعون والمائة	٣٧٠
المسألة الخامسة والسبعون والمائة	٣٧٢

بسم الله الرحمن الرحيم وإياه أستعين

أعانك الله على دَرَكِ الحق، وشرَح صدرك له، وأعاذك من سفه الباطل، وصرَف وجهك عنه، ووفَّر من العلم حظك، وأجزل من المعارف قِسْمَكَ، وجعل لك في السعادة نصيبًا من سعيك، وعلى الخير دليلًا من نفسك، وزيَّن في عينك الإنصاف والتسليم للحق، وكرَّه إليك الظُّلم والمراء في الباطل، وأثار بك دفائن الحكمة، وأوضح لك غوامض العلم، وألهمك كلمة العدل لتؤْثِرها في أمورك وأحوالك، وتقف عندها في أقوالك وأفعالك.

قرأتُ مسائلك التي سألتني أجوبتها في رسالتك التي بدأت بها فشكوت فيها الزمان، واستبطأت بها الإخوان، فوجدتك تشكو الداء القديم والمرض العقيم، فانظر حفظك الله إلى كثرة الباكين حولك وتأَسَّ، أو إلى الصابرين معك وتَسَلَّ، فلعمر أبيك إنَّما تشكو إلى شاكٍ، وتبكي على باكٍ، ففي كل حَلْق شجًى وفي كل عين قذًى، وكل أحدٍ يلتمس من أخيه ما لا يجده أبدًا عنده، ولو كان حد الصديق ما رسمه الحكماء حين قالوا: صديقك آخر هو أنت إلا أنَّه غيرك بالشَّخص، فهيهات منه، إنِّي لأظن الأبلق العَقوق والعنقاء المُغْرِب والكبريت الأحمر أيسر مطلبًا وأقرب وجودًا منه.

وبعدُ: فإنِّي أرى لك إذا أحببتَ معايشة الناس ومخالطتهم، وآثرت لذَّة العمر وطِيب الحياة، أن تُسامح أخاك، وتُغالط فيه نفسك، حتى تُغْضيَ له عن كل حقٍّ لك، وترى له عليك ما لا يراه لنفسه، وأن تأخذ بأدبِ بَشَّار فإنه نِعْمَ الأدب، وموعظة النابغة فنعمت الموعظة، ولا تُعوِّد عشيرك وجليسك استماع شكواك فيأنس به ثم لا يُشْكِيك، ولا تُكثر عليه من العَتْب فيألفه ثم لا يُعْتِبُك.

هذا إن لم يكن عنده لك أكثر مما عندك له، ولم تهجم منه على صدرٍ محْتَشٍ وغْرًا، وقلبٍ ممتلئ دِمَنًا؛ فإنَّك حينئذٍ تهيج بلابلَه، وتُثير ضغائنه، وتُذكِّره ما تناساه كرمًا أو تكرُّمًا، وطواه حِلمًا أو تحلُّمًا، وهذا إنْ أنصفك فلم يتسرع إليك، وصَدَقَكَ فلم يتكذَّب عليك، ومَن عرَف طبع الزمان وأهله، وشيمة الدهر وبنيه، لم يطمع في المُحال، ولم يتعرض للممتنع، ولم ينتظر الصفو من معدن الكدر، ولم يطلب النَّعيم في دار المحنة.

وأنت إذا لم تجد من نفسك — وهي أخصُّ الأشياء بك — مساعدةً لك على رضاك، ولا من أخلاط بدنك — وهي أقرب الأمور إليك — موافقةً لهواك، فكيف تلتمسها من غيرك، وتطلبها من سواك؟

استعذ بالله من الشيطان ووساوسه، ومن دنس الجهل وملابسه، واستعن بالله يُعِنك، واستكفِه يَكْفِك، ولا قوة إلا به.

هذا مبلغ ما رأيتُ من وعظك، وحضرني من نُصْحك، وأرجو أن يوافق ما توخَّيته لك، ورجوته فيك من القبول والامتثال إن شاء الله.

وها أنا ذا آخِذٌ في أجوبة مسائلك التي سميتها «هوامل»، ومجتهدٌ في ردِّها عليك بِرُعَاةٍ حفَظَة، ووُلاة يقظة، محلولة العقال، موسومة الأغْفَال، ومؤمِّلٌ أن تجد بها من الحكمة ضالَّتك، ومن العلم بُغْيتكَ وطَلِبَتكَ، فتُفضي بعد الظَّفر منها إلى بَرْد اليقين فيها إن شاء الله.

وشَرْطُنا إذا تكلمنا في مسألةٍ أن نُبيِّن عويصها، ونشرح مُشكلها، فإذا تعلَّق ذلك بكلامٍ مسبوق إليه مقرَّر، وأصلٍ محكومٍ به مُثبَت، قد شرحه غيرنا وبيَّنه — لا سيما رجلٌ مشهور بالحكمة، عالي الدرجة فيها — أَرشدْنا إليه، ودلَلنا على موضعه؛ فإنِّي رأيت فِعْل ذلك أولى من تكلُّف نَسْخِه ونقلِه والتكثُّر به، مع ذِكْريه إيماءً واختصارًا، وبالله التوفيق.

المسألة الأولى: وهي لغوية

قلت أعزَّك الله: ما الفرق بين العجلة والسرعة؟

وهل يجب أن يكون بين كل لفظتين — إذا تواقعتا على معنًى وتعاورتا غرضًا — فرقٌ؛ لأنَّك تقول: سُرَّ فلان وفرِحَ، وأشِرَ فلان ومرِحَ، وبعُد فلان ونزح، وهزَلَ فلان ومزَح، وحُجِب فلان وصُدَّ، ومُنع فلان ورُدَّ، وأعطى فلان وناول، ورام فلان وحاول، وعالج فلان وزاول، وذهب فلان ومضى، وحكَم فلان وقضى، وجاء فلان وأتى، واقترب فلان ودنا، وتكلم فلان ونطق، وأصاب فلان وصَدَق، وجلس فلان وقعد، ونأى فلان وبعُد، وحضر فلان وشهِد، ورغب عن كذا وزهِد.

وهل يشتمل السرور والحبور، والبهجة والغبطة والفَكَه والجذل والفرح، والارتياح والبَجَح على معنًى واحد أو على معانٍ مختلفة؟ وخذ على هذا؛ فإنَّ بابه طويل وحبله مَتِنِي وشكله كثير.

فإن كان بين كل نظيرين من ذلك فرقٌ يفصِل معنًى من معنًى ويفُرُّ مُرادًا من مراد، ويبيِّن غرضًا من غرض، فلِمَ لا يُشترَك في معرفته كما اشْتُرِك في معرفة أصله؟

وعلى هذا: فما الفرق بين الغرض والمعنى والمراد، وها هو ذا وقد تقدَّم آنفًا؟

وما الذي أوضح الفرق بين نطَق وسكَت، وألبَس الفرق بين نطَق وتكلم، وبين سكَت وصمت؟

الجواب

قال أبو علي أحمد بن محمد مِسْكَويه:

لما كُنَّا نحتاج في الجواب عن هذه المسألة إلى ذكر السَّبب الَّذي من أجله احتيج إلى الكلام المصطلح عليه، والحاجة الباعثة على وضع الأسماء الدالة بالتواطؤ، والعلة الداعية إلى تأليف الحروف التي تصير أسماءً وأفعالًا وحروفًا بالاتفاق والاصطلاح، والأقسام التي تعرض لنا بموجب حكم العقل، قدَّمنا بيان ذلك أمام الجواب؛ ليكون توطئةً له، وليسهل علينا هذا المطلب، ويُبِينَ عن نفسه، ويُعِينَ على ما اعتاص منه، فأقول:

إنَّ السَّبب الذي احتيج من أجله إلى الكلام هو: أنَّ الإنسان الواحد لما كان غير مُكْتَفٍ بنفسه في حياته، ولا بالغٍ حاجاته في تتمة بقائه مدته المعلومة وزمانه المقدَّر المقسوم احتيج إلى استدعاء ضروراته في مدة بقائه من غيره، ووجب بشريطة العدل أنْ يُعطي غيره عِوَض ما استدعاه منه بالمعاونة التي من أجلها قالت الحكماء: إنَّ الإنسان مدني بالطبع.

وهذه المعاونات والضرورات المُقتسَمة بين النَّاس، التي بها يصح بقاؤهم، وتتم حياتهم، وتحسُن معايشهم، هي أشخاص وأعيان من أمور مختلفة، وأحوالٍ غير متفقة، وهي كثيرة غير متناهية، ورُبَّما كانت حاضرة فصحَّت الإشارة إليها، وربَّما كانت غائبةً فلم تكفِ الإشارة فيها، فلم يكن بُدٌّ من أن يُفْزَع إلى حركات بأصواتٍ دالةٍ على هذه المعاني بالاصطلاح؛ ليستدعيها بعض النَّاس من بعض، وليعاون بعضهم بعضًا فيتم لهم البقاء الإنساني، وتكمُل فيهم الحياة البشرية. وكان الباري جل وعز، بلطيف حكمته وسابق علمه وقدرته، قد أعدَّ للإنسان آلة هي أكثر الأعضاء حركة، وأوسعها قدرة على التصرف، ووضعها في طريق الصوت وضعًا موافقًا لتقطيع ما يخرج منه مع النَّفس ملائمًا لسائر الآلات الأُخَر المعِينة في تمام الكلام — كانت هذه الآلة أجدر الأعضاء باستعمال أنواع الحركات المظهرة لأجناس الأصوات الدالة على المعاني التي ذكرناها، وقد بلغت عدة هذه الأصوات المفردة المُقطَّعة بهذه الحركات المسماة حروفًا ثمانية وعشرين حرفًا في اللغة العربية، ثم رُكِّبت كلها ثنائيًّا وثلاثيًّا ورباعيًّا وجميعها متناهية محصاة؛ لأنَّ أصولها وبسائطها محصورة معدودة؛ فالمركبات منها أيضًا محصورة معدودة.

ولما كانت قسمة العقل تُوجب في هذه الكلم إذا نُظر إليها بحسب دلالتها على المعاني أن تكون على أحوال خمس، لا أقل منها ولا أكثر، وُجِدت منقسمة إليها لا غير، وهي: أنْ يتفق اللفظ والمعنى معًا، أو يختلفا معًا، أو تتفق الألفاظ وتختلف المعاني، أو تختلف

الألفاظ وتتفق المعاني، أو تتركب اللَّفظة فيتفق بعض حروفها وبعض المعنى وتختلف في الباقي.

وهذه الألفاظ الخمسة هي التي عدَّها «الحكيم» في أول كُتبه المنطقية، وتكلَّم عليها المفسرون وسمَّوها المتفقة، والمتباينة، والمتواطئة، والمترادفة، والمشككة، وهي مشروحة هناك، ولكن السَّبب الذي من أجله احْتِيجَ إلى وضع الكلام يقتضي قسمًا واحدًا منها، وهو أن تختلف الألفاظ بحسب اختلاف المعاني، وهي المسماة المتباينة، فأمَّا الأقسام الباقية فإنَّ ضرورات دعت إليها وحاجات بعثت عليها، ولم تقع بالقصد الأوَّل، وسنشرح ذلك بعون الله وتوفيقه.

وقد تقدَّم البيان أنَّ المعاني والأحوال التي تتصور للنَّفس كثيرة جدًّا، وأنَّها بلا نهاية، فأمَّا الحروف الموضوعة الدالة بالتواطؤ، والمركَّبات منها، فمتناهية محصورة مُحصاة بالعدد، ومن الأحكام البينة والقضايا الواضحة ببدائه العقول أنَّ الكثير إذا قُسِمَ على القليل اشتركت عدة منها في واحدة لا محالة، فمن ها هنا حدث الاتفاق في الاسم، وهو أن توجد لفظة واحدةٌ دالة على مَعَانٍ كثيرةٍ، كلفظة العين الدَّالَّة على العين التي يُبصر بها، وعلى عين الماء، وعين الرُّكْبَة، وعين الميزان، والمطر الذي لا يُقْلِع أيامًا، وأشباهه من الأسماء كثيرةٌ جدًّا.

ولم يقع هذا الفعل المؤدي إلى الإلباس والإشكال، وإلى الغلط والخطأ في الأعمال والاعتقادات باختيار، بل باضطرار طبيعي كما بيَّنا وأوضحنا.

وعرض بعد ذلك أن أصحاب صناعة البلاغة، وصناعة الشعر والسجع، وأصحاب البلاغة والخطابة هم الذين يحتاجون إلى الإقناعات العامية في مواقف الإصلاح بين العشائر مرة، والحض على الحروب مرة، والكف عنها مرة، وفي المقامات الأُخَر التي يُحتاج فيها إلى الإطالة والإسهاب، وترديد المعنى الواحد على مسامع الحاضرين ليتمكن من النفوس وينطبع في الأفهام — لم يستحسنوا إعادة اللفظة الواحدة مرارًا كثيرة، ولا سيما الشاعر؛ فإنه مع ذلك دائم الحاجة إلى لفظ يضعه مكان لفظ دال على معناه بعينه ليُصحِّح به وزن شِعره ويُعدِّل به أقسام كلامه.

فاحْتِيج لأجل ذلك إلى أسماء كثيرةٍ دالةٍ على معنًى واحد.

وهذا العارض الذي عرَض للألفاظ المترادفة كأنه مُنَاصِبٌ للقصد الأول في وضع الكلام مخالفٌ له، وقد دعت الحاجة إليه كما تراه، ولولا حاجة الخطباء والشعراء وأصحاب السجع والموازنة إليه لكان لغوًا باطلًا.

ولما كانت المسألة متعلقة بهذين القسمين من الكلام اقتصرنا على شرحهما، وعوَّلنا — لمن نشط للوقوف على الأقسام الأُخر — على الكُتب المصنفة فيها لأهل المنطق لأنها مستقصاة هناك.

وإذ قد فرغنا من التوطئة التي رُمْنَاها أمام المسألة؛ فإنا نأخذ في الجواب عنها فنقول:

إن من الألفاظ ما توجد متباينة، وهي التي تختلف باختلاف المعنى، وإليها كان القصد الأول بوضع اللغة.

ومنها ما توجد متفقة، وهي التي تتفق فيها ألفاظ واحدة بعينها ومعانيها مختلفة.

ومنها ما توجد مترادفة، وهي التي تختلف ألفاظها ومعانيها واحدة.

وهذان القسمان حدثا بالضرورة كما بيَّنا.

وربما وُجدت ألفاظ مختلفة دالة على معانٍ متقاربة، وإن كانت أشخاص تلك المعاني مختلفةً، وربما دلت على أحوال مختلفة، ولكنها مع اختلافها هي لشخصٍ واحد؛ فلأجل ذلك يستعملها الخطيب والشاعر مكان المترادفة لموضع المناسبة والشَّرِكة القريبة بينها وإن كانت متباينة بالحقيقة، ومثال ذلك ما يوجد من أسماء الداهية فإنَّها على كثرتها نعوت مختلفة، ولكنها لما كانت لشيء واحد استُعملت كأنَّها معنًى واحد.

وكذلك أسماء الخمر والسيف وأشباهها.

وأنت إذا أنعمت النَّظر واستقصيت الرويَّة وجدتَ هذه الأشياء مختلفة المعاني، ولكنها لما كانت أوصافًا لموصوف واحد أُجْرِيت مَجرى الأسماء الدالة على معنًى واحد، وذلك عند اتساع الناس في الكلام وعند حاجتهم إلى التَّسمُّح وترك التكلف والتَّجوُّز في كثير من الحقائق.

ولولا علمي بثقافة فطنتك وإحاطة معرفتك وسرعة تطلُّعك بفهمك على ما أومأت إليه لتكلفتُ لك الفرق بين معاني ألفاظ الخمر والشراب والشمول والراح والقهوة وسائر أسمائها، وبين معاني ألفاظ السيف والصمصام والحسام وباقي ألقابه ونعوته، وكذلك في أسماء الدواهي ونعوتها، ولكني رأيت تجشُّم ذلك فضلًا وإطالة وتكثيرًا عليك بما لا فائدة لك فيه.

فينبغي لنا إذا وجدنا ألفاظًا مختلفة ومعانيها متفقة أو متقاربة أن ننظر فيها؛ فإن نُبِّهنا على موضع خلاف في المعاني حملنا تلك الألفاظ على مقتضى اللغة وموجب الحكمة في وضع الكلام فنجعلها من الألفاظ المتباينة التي اختلفت باختلاف المعاني.

وهي السبيل الواضحة والطريقة الصحيحة التي يسقط معها سؤال السائل وشك المتشكك.

فإن لم يقع لنا موضع الخلاف في المعاني ولم يدلنا عليه النظر حملناه على الأصل الآخر وصرفناه إلى القسم الذي بيَّناه وشرحناه، من الضرورة الداعية في الشِّعر والخطابة إلى استعمال الألفاظ الكثيرة الدالة على معنًى واحد.

ولما وجدتُ المسائل التي صَدَرَت في هذه الرسالة قد مُثِّلَ فيها بألفاظ بعينها تكلفت الكلام فيها؛ ليُستعان بها على نظائرها؛ فإنها عند التصفح كثيرة واسعة جدًّا، والله الموفق.

أما الفرق بين العجلة والسرعة؛ فإن العجلة على الأكثر تُستعمل في الحركات الجسمانية التي تتوالى، وأكثر ما تجيء في موضع الذم؛ فإنك تقول للرجل: عجِلت عليَّ وعجِل فلان على فلان، فيُعلم منه أنه ذم، وأنت لا تفهم هذا المعنى من أسرع فلان.

وأيضًا فإنك لا تستعمل الأمر من العجلة إلا لأصحاب المهن الدنية ولا تقوله إلا لمن هو دونك.

فأما السرعة؛ فإنها من الألفاظ المحمودة، وأكثر ما تجيء في الحركات غير الجسمانية، وذاك أنك تقول: فلان سريع الهاجس وسريع الأخذ للعلم، وقد أسرع في الأمر وأسرع في الجواب، ﴿وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾، وفرس فلان أسرع من الريح وأسرع من البرق، ويُقال في الطَّرْف سريع، وفي القضاء سريع، والفلك سريع الحركة، ولا يُستعمل بدل هذه الألفاظ: عَجِل، ولا تتصرَّف لفظة العجلة في شيء من هذه المواضع.

وهذا فرق واضح، ولكن الاتساع في الكلام وتقارب المعنيين يحمل الناس على وضع إحدى الكلمتين مكان الأخرى.

وأمَّا قولهم: سُرَّ فلان وفرِح، وأشر ومرِح؛ فإنَّ الفرق بين السرور والفرح وبين الأشر والمرح ظاهر؛ فإن الأشر والمرح لا يُستعملان إلا في الذم والعيب، وأما السرور والفرح فليسا من ألفاظ الذم، ووضوح الفرق ها هنا أظهر وأبين من أن يُحتاج فيه إلى تكلُّف شرح وبيان.

فأما السرور والفرح، وإن كانا متقاربين في المعنى فإنَّ أحدهما وهو السرور لا يُستعمل إلا إذا كان فاعله بك غيرك، وأما الفرح فهو حال تحدث بك غير فاعل، وتصريف الفعل منهما يدل على صحة ما ذكرناه، وذلك أنك تقول: سُرِرت وسُرَّ فلان، ولا يُستعمل فيه إلا لفظ فُعِلَ الذي هو، وإن لم يُسمَّ فاعله، فهو فعل غيرك.

فأما قولك: فرحت وفرح فلان، فليس تقتضي اللفظة فاعلًا آخر.

وأما بعُد فلان ونزح، فبينهما أيضًا فرق، وذلك أن البعد في المسافات على أنواع، وإن كان يجمعها هذا الاسم؛ فإن الأخذ في الطول والعرض والعمق مختلف الجهات، وإن كان الجنس واحدًا، فلما اختلفت الجهات، وكانت كل واحدة منها خلاف الأخرى، وجب أن تختلف الألفاظ الدالة عليها، فلفظة البعد، وإن كان كالجنس مستعملةٌ في كل واحدة من الجهات؛ فإنه يختص بالأخذ طولًا.

وأما لفظة نزح فإنه يختص بالأخذ عمقًا، فأصله في البئر وما جرى مجراها من العمق، ثم حملهم الاتساع في الكلام — وأن العمق أيضًا بعدٌ ما — على أن أجروه مجرى الطول.

وأما هزل فلان ومزح، فبينهما فرق، وذلك أن الهزل هو ضد الجد وهو مذموم، فأما المزح فليس بمذموم: كان النبي ﷺ يمزح ولا يقول إلا حقًّا ولم يكن يهزل، ويُقال: فلان حسن الفكاهة مزَّاح، يُوصف به ويُمدح، فإذا هزل عِيب وذُمَّ.

فأما قولهم: حُجب فلان وصُدَّ؛ فإن الحجاب معنًى سابق، وكأنه سبب للصدود، ولما كان الصدود هو الإعراض بالوجه — وإنما يقع هذا الفعل بعد الحجاب منه — صار قريبًا منه فاستُعمل مكانه، وبين المعنيَين تفاوت.

فأمَّا الألفاظ الأُخر التي ذكرتَ بعدُ فإن المتأمل لها يعرف الفرق بينها بأدنى تأمُّل ولذلك تركت الكلام فيها؛ إذ كان أعطى أصله من عطا يعطو وإنما عُدِّي بالهمزة كما تقول: قام فلان وأقامه غيره، وأما «ناول» فهو فاعل من النَّوْل، وحاول فِعْلٌ مِن الحَوْل.

وهذه الأشياء من الظهور بحيث يُستغنى عن الكلام فيها.

وأما قولهم: جلس فلان وقعد؛ فإن الهيئة وإن كانت واحدة؛ فإن الجلوس لما كان بِعَقِب تُكاءٍ واستلقاءٍ، والقعود لما كان بعقب قيام وانتصاب؛ أحبُّوا أن يَفْرِقوا بين الهيئتين الواقعتين بعقب أحوال مختلفة.

والدليل على أنهم خالفوا بين هاتين اللفظتين لأجل الأحوال المختلفة قبلهما أنك تقول: كان فلان متكئًا فاستوى جالسًا، ولا تقول استوى قاعدًا.

ولست أقول: إن هذا الحكم واجب في كل لفظتين مختلفتين إذا دلَّتا على معنى، ولا هو حَتْمٌ عليك ولا ضربة لازِبٍ لك، بل قد قدَّمنا أمام هذه المسألة ما جعلنا لك فيه فُسحة

تامة ورخصة واسعة: إذا لم تجد الفرق واضحًا بيِّنًا أن تذهب بهما إلى الاتفاق في الاسم الذي هو أحد أقسام الألفاظ التي عددناها.

ثم قلت في آخر المسألة: ما الفرق بين المعنى والمراد والغرض؟

وبينها فروق بينة، وذلك أن المعنى أمر قائم بنفسه مستقل بذاته، وإنما يعرض له بعد أن يصير مرادًا، وقد يكون معنًى ولا يكون مرادًا.

فأما الغرض فأصله المقصود بالسهم، ولكنه لما كان منصوبًا لك تقصده بالحركة والإرادة صار كالغرض للسهم، فاستعملت هذه اللفظة ها هنا على التشبيه.

وأما قولك في خاتمة المسألة: ما الذي أوضح الفرق بين نطق وسكت، وألْبَسَ الفرق بين سكت وصمت؟

فما أعجبه من مطالبة، وأغربه من مسألة!

كيف لا يكون الفرق بين المتضادَّين اللذين هما في الطرفين والحاشيتين، وأحدهما في غاية البعد من الآخر، أوضح من الشيئين المتقاربَين اللذين ليس بينهما إلا بُعْدٌ يسير وأمد قريب يخفى على الناظر إلا بعد حدة النظر واستقصاء التأمل؟

على أن الفرق بين صمت وسكت أيضًا غير مُلتبِس لأن السكوت لا يكون إلا من متكلم ولا يقع إلا من ناطق.

وأما الصمت فليس يقع إلا عن نطق لا محالة؛ لأنه يُقال: جاء فلان بما صَاءَ وصمت، يُعنَى به ضروب المال الحي منه والجماد، ولا يُقال في المال: صامت إلا لِمَا كان غير ذي حياةٍ ولا نطق ولا صوت؛ كالذهب والفضة وما جرى مجراهما من الجمادات.

وأما المال الذي هو ماشية وحيوان فلا يُقال له: صامت، ولا يُقال للصامت من المال ساكت لأن السكوت إنما يكون عن كلام أو صوت.

وقد يُقال في الثوب إذا أخْلَق: سكت الثوب، وإنما ذلك على التشبيه، كأنهم لما وجدوه جديدًا يُصوِّت ويُقَعْقِع شبَّهوه بالمتكلم ثم لما أمسك عند الإخلاق شبَّهوه بالساكت، وهذا من مُلَح الكلام وطُرَف المجاز.